الكتاب رقم

(٣)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

العبودية

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (٣)

العبودية

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين


بسم الله الرحمن الرحيم



فهرس المحتويات

مقدمة ٥

التعريف.. ٧

فضلها ومكانتها وضرورة الخلق إليها وتحقيقها ١١

أركان العبودية وشروطها ومدارها... ٢٤

مراتب العبودية.. ٢٥

أقسام الناس في العبادة.. ٢٧

أفضل العبادات ٣٤

آفات العبودية وعلاجها ٤١

وقفة ٤٧











مُقَدِّمَة

الحمد لله المعبود الحقّ، والإله العظيم، والربّ الكبير، أحقُّ من عُبِدَ وأشْكَرُ من أُطيعَ، خلقنا ولم نَكُ شيئًا، ورزقنا ولا نستحق شيئًا. وعدنا رضوانه وجنّته ومدده ومعونته إن أحسنّا عبوديّته وأصلحنا ديننا له واهتدينا صراطَهُ المستقيم، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

إنَّ العبودية هي قطب الدين ورحاه، ومبدؤه ومنتهاه، فالإسلام عبادة، والإيمان عبادة، والإحسان عبادة، فالعبودية هي إحسان النية والقول والعمل لله. وهذه حروف مما يسّره الله تعالى من مسائل العبوديّة لله تبارك وتعالى، جعلنا الله جميعًا من أهل تحقيقها لوجهه الكريم، والصلاة والسلام والبركة على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الدميجي
١٤٣٦/١٠/١٠
aldumaiji@Gmail.com









التعريف

العبودية غاية الخلق وعلّة الإيجاد وميزان المحبة وبرهان التقوى، ويرتفع المؤمن عند ربه بحسب تحقيقه لهذه الغاية العظمى وسلوكه ذلك الطريق العظيم الشريف الذي هو عبادة الله جل وعلا.

العبودية في اللغة: قال الأزهري: «العبادة هي الطاعة مع الخضوع. يقال: طريق مُعبّد، إذا كان مذللاً بكثرة الوطء»(١). وقال ابن فارس: «العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ(٢). ومن الباب: البعير المعبد، أي المهنوء بالقطران لأن ذلك يذله ويخفض منه، قال طرفة:

إلى أن تحامتني العشيرة كلُّها ... وأُفردتُ إفراد البعير المعبَّدِ»(٣)

وقال الجوهري: «العبد خلاف الحرًّ، تقول: عبد بيّن العبودة والعبودية. وأصل العبودية الذل والخضوع. والتعبيد: التذليل، والمُعبَّدة: السفينة المقيّرة، قال بشر في سفينة ركبها:

---

(١) معجم التهذيب (٣/ ٢٣٠٢).

(٢) قال: والأصل الآخر من بابه: العَبَدَة، وهي القوة والصلابة، يقال: هذا ثوب له عَبَدَة، إذا كان صفيقًا قويًا، ومنه علقمة بن عَبَدَة.
قلت: ولعل جذم شمَّر المشهور (عَبَدَة) من هذا الباب.

(٣) معجم المقاييس (٧٠١، ٧٠٢).





معبَّـــــدةَ الــــــسقائف ذات دُسْرٍ مـــــــضبَّرةٌ جوانبهـــــا رداحُ»(١)

وقال ابن منظور: العبد: الإنسان حرًا كان أو رقيقًا لأنه مربوب لباريه جل وعز. يقال: تعبّدت فلانًا أي اتخذته عبدًا. وفي التنزيل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. والتعبّد: التنسك، والعبادة: الطاعة. وقيل: الطاعة مع الخضوع»(٢).

وقال الراغب الأصفهاني: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل(٣)، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، لهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبد يُقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه، نحو ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٧٥]، الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]. والثالث: عبدٌ بالعبادة، والناس في هذا ضربان: عبدٌ لله مخلصًا، وهو المقصود بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾

---

(١) الصحاح (٢/ ٤٣٨).

(٢) اللسان (٦/ ٤٨، ٥٢).

(٣) وهذا غير ظاهر.



[الفرقان: ١]. وعبدٌ للدنيا وأغراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي ﷺ: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**»(١).

وجمع العبد الذي هو مسترقّ (عبيد)، وجمع العبد الذي هو عابد (عباد)، فالعبيد إذا أضيف إلى الله فهو أعم من العباد. لهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، فنبه إلى أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسمّوا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك»(٢).

أما اصطلاحًا: فقد سئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن العبادة، فقال: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(٣).

قلت: وهذا هو أجمع تعريف للعبادة.

قال شيخ الإسلام: «فالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد للكفار

---

(١) البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتقديم عبد الدينار.

(٢) المفردات (٣٢٢، ٣٢٣)، وانظر: القاموس المحيط (١١٠١).

(٣) العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣). وقيل: هي فعل المأمورات وترك المحظورات. وقال المقريزي: «واعلم أن للعبادة أربع قواعد هي: التحقق بما يحب الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابه. تجريد التوحيد المفيد» (ص٨٢)، ولاحظ أنه لم يفرق بين العبادة والعبودية وهو الصواب إن شاء الله.



والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين والبهائم، والدعاء، والذكر وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين لله، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا، والتوكل والرجاء والخوف، ذلك هي من العبادة لله»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فعبادة الرحمن غاية حبه	مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر	ما دار حتى قامت القطبان[٢]

❃❃❃❃

(١) العبودية (ص٢٥)، ورسالة العبودية من ضمن مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩-٢٣٢).

(٢) الدر النضيد للشيخ سليمان الحمدان (ص٩).





فضلها ومكانتها وضرورة الخلق إليها وتحقيقها

قال شيخ الإسلام: «العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، والتي خلق الخلق لها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل الرسل. كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وجعل ذلك لازمًا إلى الموت كما قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وبذلك وصف ملائكته، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]، وقال في وصف الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ولهذا قال النبي ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[١].

(١) البخاري (٣٤٤٥).



وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله، فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. فالدين كله داخل في العبادة.

وفي حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان قال في آخر الحديث: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**»[١] فجعل هذا كله من الدين.

والدين يتضمن الخضوع والذل، يقال: دِنْتُهُ فَدَان، أي ذلّلته فذلّ. ويقال: يَدِينُ[٢] اللهَ، ويَدِينُ للهِ، أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته، والخضوع له.

والعبادة أصلُ معناها الذل أيضًا، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. فإن آخر مراتب المحبة التتيُّم[٣]، يقال: تيم الله أي: عبد الله، فالمتيّم: المُعبّد لمحبوبه.

ومن خَضَعَ لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع

(١) متفق عليه.

(٢) بفتح الياء، أما ضمها فغاية سوء الأدب مع رب العزة سبحانه؛ لأنه من الإدانة وهي الاتهام.

(٣) انظر: روضة المحبين، ابن القيم (ص١٦).





له لم يكن له عابدًا، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون اللهُ أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله. وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وكل ما عُظّم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله ورسوله، والإرضاء لله ولرسوله ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، والإيتاء لله ورسوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩]. أما العبادة وما ينال من التوكل والخوف ونحو ذلك فلا تكون إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩] فالإيتاء لله والرسول، وأما الحَسْبُ ـ وهو الكافي[١] ـ فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[٢].

---

(١) ومن الأخطاء الشائعة قول بعضهم للآخر: أنا محسوبك، كذلك توكلت عليك ونحو ذلك؛ لأنها من إفراد العبادة، ولو قال: أعتمد عليك بعد الله لجاز، أما لفظ التوكل فيتضمن التعلق التام.

(٢) العبودية، ابن تيمية (٢٤ـ٣٨) باختصار. وانظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٥).



وقال: «والعبادة أصلها القصد والإرادة، والعبادة إذا أفردت دخل فيها التوكل ونحوه، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيمًا لها، وهكذا كما ذكرنا في لفظ الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات، والتوكل من ذلك، وقد قال في موضع آخر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ومثل هذا كثيرًا ما يجيء في القرآن، أي تنوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الإفراد والاقتران، كلفظ المعروف والمنكر، ولفظ الفقراء والمساكين، إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرق، لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عموم وخصوص؛ فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشيته وحده ونحو هذا كله يدخل في توحيد الله، قال تعالى في المحبة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده، كذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٨] فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده.

والمقصود أن قول القائل: لا إله إلا الله فيه إفراد الإلهية لله وحده، وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً، فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل



شيء، لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى، فلا يخصونه بالإلهية. وتخصيصه بالإلهية يوجب ألا يعبد إلا إياه، وألا يسأل غيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه، لكن في أمور لا يحبها الله بل يكرهها وينهى عنها، فهذا وإن كان مخلصًا له في سؤاله والتوكل عليه، لكن ليس هو مخلصًا في عبادته وطاعته، وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فهم يعانون على هذه الأمور، وهذا نصيبهم من العاجلة، أما العاقبة فسيئة.

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله ولكن لا يحققون التوكل والاستعانة به، فهؤلاء يتابعون على حسن نيتهم وطاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه؛ إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد منهم بالضعف والجزع إن لم يحصل مراده وبالإعجاب إن حصل.

وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله، بل يعبد غيره ويستعين بغيره، وهؤلاء المشركون من الوجهين.

أما القسم الرابع فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا إلا إياه ولم يتوكلوا إلا عليه»[١].

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٦-٢٧٨) بتصرف، وسيأتي بسط هذه المسألة في باب التوكل إن شاء الله، ونبهنا عليها هنا لتعلقها بالعبودية. وانظر: العبودية (٨٥- ٩١).



وقال: «كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

ومن توهّم أن المخلوق يخرج بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل مِنْ أضلِّهم، ففي القرآن وصفُ أكابر الخلق بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك، وكل رسول ابتدأ دعوته بالدعاء إلى عبادة الله، وبيّن الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات، وبالعبودية نَعَتَ كل من اصطفى من خلقه ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

والعبودية في الحقيقة: هي رقّ القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده. لهذا يقال:

العبدُ حرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال القائل:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حُرًّا

ويروى عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه، ولا إلى من يفعلُهُ، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيرًا إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك.



وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرره قويت عبوديته له، وحريَّتُهُ مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفْضِل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له. وإعراضُ قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق؛ بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على سادته وكبرائه، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبرًا لهم، متصرفًا بهم. فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر.

فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة، ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدُها لأنه تزوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولاسيّما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكُّم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن. فإن من استُعبِدَ بدنُهُ واسترق وأُسر، لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في



الخلاص، وإما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقًا مستعبدًا، متيمًا لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبدَ القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقّه فاجر بغير حق، لم يضرّه ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات. ومن استُعبد بحق إذا أدّى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استُعبد قلبُه فصار عبدًا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»**(١).

والعبد لابد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، لهذا كانت مسألة المخلوق محرّمة في الأصل، وإنما أُبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد. وأوصى خواص أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا، فكان السوط يسقط من أحدهم ولا يقول لأحد ناولني إياه. وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقول النبي ﷺ: **«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»**(٢)، ومنه

---

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد (١/ ٢٩٣) بسند حسن.



قول الخليل: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

ومن تعلق قلبه بامرأة مباحة له صار فيه من العبودية لها بحسب ذلك، أما من استعبد قلبَهُ صورة محرمة ـ امرأة أو صبي ـ فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب. ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذّ ولا أطيب.

والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه(١)؛ انقهر له هواه بلا علاج(٢).

---

(١) فلابد من قوة الإخلاص ولا يكفي مجرد ذوقه.

(٢) وسيأتي التفصيل في آخر الفصل في علاج الآفات بمشيئة الله، وفي علاج تعلق الصور فصل خاص في باب المحبة بمشيئة الله تعالى.



وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض؛ قلبُه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمُهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عما يجترحونه، ليطيعوه ويعينوه، فهو في الحقيقة عبد مطيع لهم، وإن كان في الظاهر رئيسًا مطاعًا. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عباد الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير حق؛ كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقّه؛ مستعبدٌ للآخر.

وهكذا أيضًا طالب المال؛ بأن ذلك يستعبده ويسترقّه، وحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يُحب وبُغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طَلَبَ القلب فعل المحبوبات، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبًا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة. فالمحبون للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة. فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبّين لغير الله مما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم، دل ذلك على ضعف محبته لله. ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبًا لله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] [(١)].

(١) لاحظ ارتباط العبودية بجميع أقوال وأعمال القلب والجوارح، ولكنها في أعمال =





إذا تبين هذا؛ فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حبًّا وفضّله عما سواه.

والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:

من جهة العبادة، وهي العلة الغائية[(١)]، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلّة الفاعلة. فالقلب لا يصلحُ، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يُسرّ، ولا يطيع ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أُعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة لله، فلن يحصل إلا على الألم

= التعلق (الحب ـ الخوف ـ الرجاء) أشد ارتباطًا، كذلك الحال بالنسبة للافتقار والإخلاص.

(١) التي من أجلها خلق الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أو الفاعلة، ويقال لها: الفاعلية: أي عدم قدرته على العبادة إلا إذا يسر الله له أسبابها وهي التوكل والاستعانة، كما ذكرها المصنف، وجمعها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهي الغائية ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي الفاعلة.



والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يُحبه لأجله، لا يُحبه شيئًا لذاته إلا الله.

فمتى لم يحصل على هذا، لم يكن قد حقّق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان - بل من الألم والحسرة والعذاب - بحسب ذلك. ولو سعى في هذا المطلوب، ولم يكن مستعينًا بالله متوكلاً عليه، مفتقرًا إليه في حصوله؛ لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا ربّ له سواه. ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدًا لما أحبه وعبدًا لما رجاه، بِحَسَبِ حبّه ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه فإنما أحبه لله، ولم يَرْجُ قط إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصَّل ما حصّل منها كان مشاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدّرها وسخرها له، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربُّهُ ومليكه وخالقه ومسخّرهُ وهو مفتقر إليه .كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قُسِمَ له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرفها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم؛ أتمُّهُم عبودية لله من هذا الوجه، وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه،





وهو أن يستسلم العبدُ لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوق، وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك، والشرك غالب على النصارى والكفر غالب على اليهود. ولما كان الكبر مستلزمًا للشرك، والشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله؛ كان الأنبياء جميعُهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين»[١].

❊❊❊❊

(١) العبودية (٩١-١٣٤) باختصار.



أركان العبودية وشروطها ومدارها

قال ابن القيم: «العبادة تجمع أصلين: غاية الحب، وغاية الذل والخضوع»[(١)].

أما شروطها: فالإيمان المصحح للأعمال، ثم الإخلاص، ثم المتابعة.

قال شيخ الإسلام: «كل عمل أُريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، إلا ما جمع الوصفين؛ أن يكون لله، وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله، وتحقيق هذين الشرطين هو مقتضى الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله، ففي الأولى لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية أن محمدًا ﷺ هو المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره وقد بيّن لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة»[(٢)].

أما مدار العبودية فعلى خمس عشرة قاعدة. قال ابن القيم: «العبادة مدارها على خمس عشرة قاعدة، من كمّلها كمّل مراتب العبودية. وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح. والأحكام[(٣)] التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهُنّ لكل واحد من القلب واللسان والجوارح»[(٤)].

---

(١) المدارج (١/ ٨٥). وانظر ما تقدم عن شيخ الإسلام في الركنين.

(٢) العبودية (١٧٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٤).

(٣) وهي الأحكام التكليفية عند الأصوليين.

(٤) انظر تفصيلها في المدارج (١/ ٢١٩ وما بعدها).

مراتب العبودية

«المرتبة الأولى: عبودية مشتركة بين الخلق مؤمنهم وكافرهم، ألا وهي عبودية الحاجة والفقر إلى الله تعالى، فأهل السموات والأرض جميعًا فقراء إليه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وأي ملحد مهما كانت طريقته في الإلحاد إذا مسه الضر مسًّا قويًّا رفع بصره إلى السماء ونادى: يا الله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية. وهو ذل اختياري يقوم به العبد، وبه يميز بين المؤمنين والكفار.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة، فإن المحب ذليل لمن يحبه، وعلى قدر محبة القلب لله يكون ذله له، والذل لله تعالى هو أعلى مراتب الشرف.

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية. فإذا وقع في جناية توجه إلى ربه منكسرًا مستكينًا مستغفرًا تائبًا»

أما التقسيم المشهور للعبادة فهو تقسيمها لقسمين:

الأول: عبودية عامة، بمعنى أن العبد مخلوق مربوب مملوك محتاج لربه.

والثاني: عبودية خاصة، وهو من تذلل لربه وخضع لمولاه ودان بالدين

الذي رضيه الله.

قال شيخ الإسلام: «العبد يراد به المُعبَّد الذي عبّدَهُ الله فذلله ودبّره وصرّفه. وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله، الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامّة التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر. فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن[1]، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومدبر أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو. سواءٌ اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواءٌ علموا بذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، واعترفوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحدًا له مستكبرًا على ربه ولا يقرّ ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه»[2].

---

(١) ومن جميل ما يُنسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سُئل عن القدر فقال:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمتَ	ففي العلم يجري الفتى والمُسنّ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ	وهذا أعنتَ وذا لم تُعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

(٢) العبودية (٣٨، ٣٩)، وانظر مزيد تفصيل: الفتاوى (١٠/ ١٥٠-١٦٠).

أقسام الناس في العبادة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره أن أكثر السالكين سلكوا بجدّهم واجتهادهم غير متنبهين إلى المقصود: وإذا كان عدم الانتباه إلى المقصود والغاية من العبادة يحدث لأكثر الجادين فكيف إذًا يكون غيرهم؟

قال: «وأضرب لك في هذا مثالاً حسنًا جدًّا، وهو أن قومًا قدموا من بلاد بعيدة، عليهم أثر النعيم والبهجة، والملابس السنيّة، والهيئة العجيبة، فعجب لهم الناس، فسألوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادنا من أحسن البلاد، وأجمعها لسائر النعيم، وأرخاها، وأكثرها مياهًا، وأصحها هواءً، وأعظمها اعتدالاً، وأكثرها فاكهة، وأهلها كذلك أحسن الناس صورًا وأبشارًا.

ومع هذا فملكها لا يناله الوصف جمالاً وكمالاً، وإحسانًا وعلمًا وحلمًا، وجودًا، ورحمة للرعية وقربًا منهم، وله الهيبة والسطوة على سائر ملوك الأطراف، فلا يطمع أحد في مقاومته ومحاربته، فأهل بلده في أمان من عدوّهم لا يحلّ الخوف بساحتهم.

ومع هذا فله أوقات يبرز فيها لرعيته، ويسهل لهم الدخول عليه، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، فإذا وقعت أبصارهم عليه تلاشى عندهم كل ما هم فيه من النعيم واضمحل، حتى لا يلتفتون إلى شيء منه. فإذا أقبل على واحد منهم أقبل عليه سائر أهل المملكة بالتعظيم والإجلال.

ونحن رسله إلى أهل البلاد، ندعوهم إلى حضرته، وهذه كتبه إلى الناس،

ومعنا من الشهود ما يزيل الظن بنا، ويدفع التهمة عنا بالكذب عليه، فلما سمع الناس ذلك، وشاهدوا أحوال الرسل، انقسموا أقسامًا؛ فطائفة قالت: لا نفارق أوطاننا، ولا نخرج من ديارنا، ولا نتجشم مشقة السفر البعيد، ونترك ما ألفناه من عيشنا ومنازلنا، ومفارقة آبائنا وأبنائنا وإخواننا لأمر وُعِدنا به في غير هذه البلاد، ونحن لا نقدر على تحصيل ما نحن فيه إلا بعد الجهد والمشقة، فكيف ننتقل عنه؟

فهذه الطائفة غلب عليها داعي الحسّ والطبع على داعي العقل والرشد.

والطائفة الثانية: لما رأت حال الرسل وما هم فيه من البهجة وحسن الحال، وعلموا صدقهم؛ تأهبوا للسير إلى بلاد الملك، فأخذوا في المسير، فعارضهم أهلوهم وأصحابهم وعشائرهم من القاعدين. وعارضهم إلفهم مساكنهم ودورهم وبساتينهم، فجعلوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى. فإذا تذكروا طيب بلاد الملك، وما فيها من سلوة العيش، تقدموا نحوها. وإذا عارضهم ما ألفوا من ظلال بلادهم وعيشها وصحبة أهلها؛ تأخروا عن المسير والتفتوا إليهم، فهم دائمًا بين الداعين والجاذبين، إلى أن يغلب أحدهما ويقوى على الآخر فيصيرون إليه.

والطائفة الثالثة: ركبت ظهور عزائمها، ورأت أن بلاد الملك أولى بها فوطّنت أنفسها على قصدها، ولم يثنها لوم اللوام، لكن في سيرها بطء بحسب ضعف ما كشف لهم من أحوال تلك البلاد وحال الملك.

والطائفة الرابعة: جدّت في المسير وواصلته، فسارت سيرًا حثيثًا، فهم كما

قيل:

وركبٌ سَرَوْا والليلُ مُرْخٍ سدولَه	على كل مُغْبَرِّ المطالِع قائِمِ
حَدَوْا عَزَماتٍ ضاعت الأرض بينها	فصار سُرَاهُمْ في ظهور العزائم
تُريهم نجومُ الليلِ ما يطلبونَهُ	على عاتِقِ الشِّعْرى وهامِ النعائمِ

فهؤلاء هممهم مصروفة إلى السير، وقُواهم موقوفة عليه، من غير تثنية منهم إلى المقصود الأعظم والغاية العليا.

الطائفة الخامسة: أخذوا في الجد في المسير، وهمتهم متعلقة بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلى المقصود بالمسير، فكأنهم يشاهدونه من بُعْد وهو يدعوهم إلى نفسه وإلى بلاده، فهم عاملون على هذا الشاهد الذي قام بقلوبهم.

وعمل كلّ أحد منهم على قدر شاهده، فمن شاهد المقصود بالعمل في علمه كان ناصحًا فيه وإخلاصه وتحسينه، وبذل الجهد فيه أتم ممن لم يشاهده ولم يلاحظه، ولم يجد مسّ التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهد بذلك، فمن عمل عملاً لملك بحضرته وهو يشاهده ليس كحال من عمل في غيْبته وبُعْده عنه»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن شهد مشهد علو الله على خلقه، وفوقيته لعباده، واستواءه على عرشه، كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق، وتعبّد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صمَدٌ يفرح القلب إليه، مناجيًا له،

(١) مدارج السالكين، عن إحسان سلوك العبد المملوك (١٢٢-١٢٦).

مطرقًا واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز، فيشعر أن كَلِمَه وعمله صاعد إليه، معروض عليه، مع أوفى خاصته وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه من كَلمه ما يخزيه ويفضحه هناك.

ويشهدُ نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء، والتولية والعزل، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاء وإرساله، وتقلّب الدول، ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه. فمراسمه نافذة فيها كما يشاء ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]، فمن أعطى هذا المشهد حقّهُ معرفةً وعبوديةً استغنى به»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله عز وجل في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، فكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا اللوامة ولا الأمّارة. فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل. وأما من جهة العلم والمعرفة، فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته في ذلك يقع

(١) السابق (١٢٧، ١٢٨).

الانحراف، ويكون مع ذلك قائمًا بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها.

وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، وهو طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكنه يستدعي رسوخًا في هذا العلم، ومعرفة تامّة به، وإقدامًا على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله. وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظمين عندهم، فهم لإحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم، ولم يتجاوزوها إلى غيرها، فصارت حجابًا وأيَّ حجاب!

فمن فتح الله بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا، ولا يُخاف عليه إلا من ضعف همته، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همّة عالية، فذاك السابق حقًّا، واحد الناس في زمانه، لا يُلحق شأوه ولا يُشقَّ غباره، فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات. وبين من يتلقاها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم، أو عن مجرد ذوقه ووجده، إذا استحسن شيئًا قال: هذا هو الحق.

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجيب، وفتحه عجب، صاحبه قد سبق السُّعاة، وهو مستلقٍ على فراشه، غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه، ولا مشرّد عن سكنه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وليس العجب من سائر في ليله ونهاره، وهو في السُّرى لم يبرح مكانه، وإنما العجب من ساكن لا يُرى عليه أثر السفر، وقد قطع المراحل

والمفاوز! فسائر قد ركبته نفسه، فهو حاملها سائر بها يعاقبها وتعاقبه، ويجرّها وتهرب منه، ويخطو بها خطوة إلى أمامه فتجذبه خطوتين إلى ورائه، فهو معها في جهد وكدّ، وهي معه كذلك. وسائر قد ركب نفسه، وملك عنانها، فهو يسوقها كيف شاء وأنى شاء، لا تلتوي عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه، بل هي معه كالأسير الضعيف بيد مالكه وأسره، وكالدابة الريّضة المنقادة في يد سائسها وراكبها، فهي منقادة معه حيث قادها، فإن رام التقدّم جمزت به وأسرعت، فتسير به وهو ساكن على ظهرها.

فشتان ما بين المسافرين! فتأمل هذا المثل فإنه مطابق لحال السائرين، والله يختص برحمته من يشاء»(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد سمعت بجماعة من الصالحين عاملوا الله عز وجل على طريق السلامة والمحبة واللطف، فعاملهم كذلك؛ لأن طبعهم لا يحتمل غير ذلك. واحدهم يقسم على ربه فيجيبه، وهناك أعلى من هؤلاء، يسألون فلا يُجابون، وهم بالمنع راضون. ليس لأحدهم انبساط، بل قيدهم الخوف، ونكس رءوسهم الحذر، ولم يروا ألسنتهم أهلاً للانبساط(٢)، فغاية آمالهم العفو. فإذا انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ، فقال: مثلك لا يُجاب، وربما قال: لعل المصلحة في منعي. وهؤلاء الرجال حقًّا

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم (١/٤٦٨ - ٤٧١).

(٢) والتوسط أن تحسن الظن بربك، وتسيء الظن بنفسك، وهذه حال السابقين الأولين.

والأبله الذي يرى له من الحق أن يجاب[١]، فإن لم يجب تذمر في باطنه كأنه يطلب أجرة عمله، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته، وإنما العبد حقًّا من يرضى ما يفعله الخالق[٢]، فإذا سَأَل فأُجيب رأى ذلك فضلاً، وإن مُنع رأى تصرّف مالك فلم يجل في قلبه اعتراض»[٣].

❁❁❁❁

(١) ولا يمنع هذا من «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**» أحمد والترمذي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٩٦) لأنه يعود على نفسه بالملام، ويقول: إنما أُتيتُ من قبلك، فللدعاء موانع ومحبطات، والخجل الوجل هو من يعتني بها هربًا وفَرَقًا. كذلك فالإجابة هنا هي إجابة بالمعنى العام من تعجيل مراده، أو تأخيره، أو دفع السوء عنه بقدر دعائه، أو حفظه له أجرًا في الآخرة.

(٢) ويسأله من فضله ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وسيأتي مزيد في باب حسن الظن، إن شاء الله تعالى.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٣٢١).

أفضل العبادات

قال ابن القيم في بيان أفضل العبادات: «قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فكلّ أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقّها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقّها على النفوس وأصعبها(١).

---

(١) وهذا غير مسلّم لهم. قال شيخ الإسلام: «قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة؛ ليس بمستقيم على الإطلاق، فالأجر على قدر الطاعة، فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسّر، كما يسّر الله على أهل الإسلام الكلمتين، وهما أفضل الأعمال، ولذلك قال النبي ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** متفق عليه.

ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته؛ لكان صحيحًا، فأما كونه مشقة فليس هو سببًا لفضل العلم ورجحانه. ولكن قد يكون العمل الفاضل شاقًّا، ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة؛ كمن كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر؛ يكون أجره أعظم من القريب. فكثيرًا ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة
=

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبّد. وقالوا: الأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أَحْمَزُهَا»(١)، أي: أصعبها وأشقها، وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها التجرد، والزهد في الدنيا، والتقليل منها غاية الإمكان، ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنّوا أن هذا غاية، فشمروا إليه، وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة(٢)، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

=

مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب.

هذا في شرعنا الذي رُفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه من حرج». الفتاوى (١٠/ ٦٢٠ـ ٦٢٢) باختصار، عن هامش كتاب طب القلوب (٢٤٥، ٢٤٦).

قلت: وهذا المعنى يوجه حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: **«أجرك على قدر نصبك»**. البخاري (١٦٩٥) ومن هذا الباب حديث جويرية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعًا: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» مسلم (٢٧٢٦).

(١) في مسنده من لا يعرف. وانظر: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (١/١٠٠)، وقال ابن القيم في شرح المنازل: لا أصل له.

(٢) وهو باطل قطعًا.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله سبحانه وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه، فرأوا أن أفضل العبادات في جمعية القلب على الله سبحانه، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له(١).

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدّ، فرأوا خدمة الفقراء ومساعدتهم بالمال والجاه، فتصدّوا له وعملوا عليه، واحتجوا بحديث: «**الخلق كلهم عيالُ الله**(٢)**، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله**»(٣)، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفّاع متعدّ إلى الغير، واحتجوا بقوله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْرِ**(٤) **النَّعَم**»(٥). وقوله عليه الصلاة والسلام: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»(٦)، واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله مادام نفعه الذي نسب إليه،

(١) وسيأتي بسط ذلك في باب العزلة إن شاء الله تعالى.

(٢) أي إن الله يعولهم ويرزقهم.

(٣) قال في مجمع الزوائد (٨/ ١٩١): فيه يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك. عن طب القلوب (٢٤٧).

(٤) حُمْر: بتسكين الميم، جمع حمراء وهي أنفس أموال العرب. أما حُمُر بضم الميم فجمع حمار.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم (٢٦٧٤).

واحتجوا بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين همُّوا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

ورأى هؤلاء التفّرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب تعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته(١).

فأفضل العبادات في وقت الجهاد؛ الجهادُ، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل؛ الإقبال على تعليمه والاشتغال به، والأفضل في أوقات السَّحَر؛ الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار، والأفضل في أوقات الأذان؛ ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس؛ الجدّ والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال؛

---

(١) وهو الصواب.

الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أوراده وخلوته.

والأفضل في وقت قراءة القرآن؛ جمعية القلب والهمّة على تدبّره وتفهّمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبّره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة؛ الاجتهاد في التضرّع والدعاء والذكر، دون الصوم المُضْعِفِ عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة؛ الإكثار من التعبّد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيّن.

والأفضل في العشر الأخيرة من رمضان؛ لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدّي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته؛ عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلواتك وجمعيتك[1].

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك؛ أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، كما في الحديث: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على**

---

(١) ولابن قدامة المقدسي رسالة لطيفة في وظائف المؤمن في اليوم والليلة.

أذاهم»[١]، والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال؛ إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة وفارقه حتى يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبده بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبّده عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازلة العبودية، كلما رُفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيّده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها من العبادات، بل هو على مراد ربه عز وجل

---

(١) رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١)، وفي الصحيحة (٩٣٩).

ولـو كانـت راحـة نفـسه ولـذّتها في سـواه، فهـذا هـو المتحقـق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائمُ بها صدقًا، مَلبَسُه ما تهيأ، ومأكله ما تيسّر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبّدُه قيد، ولا يستولي عليه رسم، حُرٌّ مجرّد، دائر مع الأمر حيث دار، يَدينُ بدين الأمر أنّى توجّهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلّت مضاربه، يأنسُ به كلُّ مُحِقّ، ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلُّها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله، وبالله، ومع الله، قوّامًا له، ما أغربه بين الناس! وما أشدّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته به وسكونه إليه! والله المستعان، وعليه التكلان»[١].

❁❁❁❁❁

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (١/ ٨٥-٩٠) عن: طب القلوب (٢٤٥-٢٥١).

آفات العبودية وعلاجها

أعظمها: التعلق بغير الله تعالى، وهذا أساس البلاء وذريعة الخذلان. وعلاج ذلك بتحقيق التوحيد والإخلاص.

قال شيخ الإسلام: قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، كذلك الصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله. وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، أما اندفاع الشر عنه فهو مقصوده لغيره على سبيل التبع.

كذلك تزكية النفس: والقلب خُلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلمّا عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يَفْسُدُ الزرعُ بما ينبت فيه من الدَّغَل. ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:

٢١]. فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكى للنفس، وبيّن أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك.

ومن آفاتها: طلب الرئاسة والعلو في الأرض: فقلب رقيق لمن يعينه عليها، وهكذا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقّه. والعلاج أن يعلم أن هذه الأمور نوعان:

الأول: ما يحتاج العبد إليه، كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه وسكنه ومنكحه، ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠، ٢١](١).

الثاني: ما لا يحتاج العبد إليه(٢)، فهذا لا ينبغي أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا لها، وربما صار معتمدًا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

(١، ٢) وجماعه الزهد، وهو ترك ما لا ينفع في الآخرة، وسيأتي في باب مستقل إن شاء الله تعالى.

ومن آفاتها: الكبر والتعاظم، وقد ثبت في الصحيح(١) عن النبي ﷺ أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، كما أن النار لا يُخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلاً للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية. كما ثبت في الصحيح(٢) عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»، فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار، ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير، وكذلك يستحب في الأمكنة العالية كالصفا والمروة، وإذا علا الإنسان شَرَفًا، أو ركب دابّة، ونحو ذلك، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حسّاسٌ يتحرك بالإرادة، وقد ثبت(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»، فالحارث: الكاسر الفاعل، والهمام: فعّالٌ من الهمّ، والهمّ أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائمًا، وكل إرادة فلابد لها من مراد تنتهي إليه، فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل

(١) مسلم (٩١).
(٢) مسلم (٢٦٢٠).
(٣) رواه ابن وهب في جامعه مرسلاً، وله شاهد عند أحمد وأبي داود، وقد صححه ابن تيمية كما ترى، وحكم عليه الألباني وشعيب الأرناؤوط بأنه مرسل صحيح.

استكبر عن ذلك، فلابد أن يكون له مراد محبوب يستعبدُهُ غيرَ الله فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب، إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله، كالشمس والقمر والقبور وغير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبدًا لغير الله، فيكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله وكان مشركًا، قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، ووصفه بالشرك في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله، كان أعظم إشراكًا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجتهُ إلى المراد المحبوب الذي هو مقصود القلب فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك، ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه.

ومن الآفات: الشرك، وهو أعظم الذنوب، وهو غالب على النفوس، وقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دِقِّهِ وجِلِّهِ؟ قل: اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[١]، وكان عمر يقول في

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٤/ ٧١٦).

دعائه: اللّهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وكثيرًا ما يخالط النفوس شهوة خفية تفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دينها له. كما قال شداد بن أوس: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية(١). وقيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

ومن آفاتها: الحرص، وقد قال ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**(٢)، فبين أن الحرص على المال والشرف في إفساد الدين لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم. وذلك بيّن؛ فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له؛ لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدّمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبودية غيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله،

---

(١) قال علي حسن عبد الحميد في تحقيق العبودية (١٧٧، ١٧٨): وقد صح هذا مرفوعًا. ورواه البيهقي في الزهد (ص٣١٩) وذكر الطرق. وقوله: «يا نعايا العرب» يريد أن العرب قد هلكت.

(٢) أحمد (٣/ ٤٥٦)، والترمذي (٢٤٨٢) وقال: حسن صحيح.

خائفًا منه راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]»[١]، فالسعيد حقًّا هو من حقق العبودية اعتقادًا وقولاً وعملاً. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

❀❀❀❀❀

(١) العبودية (١٢٠-١٨٠) باختصار وتصرف.

وقفة

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

«العزلة حمية البدن، والمناجاة قوت القلب، ومن أنس بمولاه استوحش من سواه.

يـــا منتهـــى وحـــشتي وأُنـــسي	كُـــنْ لي إن لم أكـــن لنفـــسي
أطمَعَنـــــي في غـــدٍ نجـــاتي	حلمُـك عـن سـيئات أمـسي

خُلق القلب طاهرًا في الأصل، فلما خالطته شهوات الحس تكدّر، وفي العزلة يرسبُ الكدرُ.

الحيوان المميز على ثلاثة أقسام:

فالملائكة خلقت من صفاءٍ لا كدرَ فيه، والشياطين من كدرٍ لا صفاء فيه، والبشريُّ مركبٌ من الضدين، فالعَجَبُ أن تقوى عند التقوى.

مُذْ عزم عمر على طلاق الهوى، أحدّ أهله عن زينة الدنيا. قال للمشركين قبل خروجه مهاجرًا: ها أنا، على عزم على الهجرة، فمن أراد أن يلقاني فليلقني في بطن هذا الوادي.

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي

لما ولي عمر بن عبد العزيز خيّر النساء، فقال: من شاءت فتلقم، ومن شاءت فلتذهب، فإنه قد جاء أمر شغلني عنكن.

للعزائم رجال ليسوا في ثيابنا، وطّنوا على الموت فحصلت الحياة.

إذا ما جررتُ الرُّمْحَ لم يثنني أبٌ مُلِحٌّ ولا أُمٌّ تصيحُ ورائي
وشيّعني قلبٌ إذا ما أمرتُهُ أطاع بعزمٍ لا يروغُ ورائي

يا مختار القدر! اعرف قدر قدرك. يا خزانة الودائع! يا وعاء البدائع! يا من غُذّي بلبان البِرِّ، وقُلّب بأيدي الأيادي، يا زرعًا تهمى عليه سحب الألطاف، الأشياءُ شجرة وأنت الثمرة، وصورٌ وأنت المعنى، وصدَفٌ وأنت الدُّرُّ.

ويحك! لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، أُبعد إبليس لأجلك إذ لم يسجد لك، فالعجب منك كيف صالحته وعصيت ربك؟!

يا جوهرة بمضيعة! يا لُقطة تُداسُ، كم في السماوات من ملك يسبِّحُ ما لهم مرتبة ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ [السجدة: ١٦] وما لهم مقام «**ولخلوف**»[١]، أنين المذنبين أوفى من تسبيحهم، سبحان من اختارك على الكل[٢] وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ ﴾ [البقرة: ٣٠]. خلق سبعة أبحر واستقرض منك دمعة، له ملك السماوات والأرض، واستقرض منك حبَّة.

لو كان في قلبك محبة لبان أثرها في جسدك «**عجب ربنا من رجل ثار على وطائه ولحافه إلى صلاته**»[٣]. تلمّحْ معنى «ثار» ولم يقل: قام؛ لأن القيام قد يقع

---

(١) قال ﷺ: «**ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» متفق عليه.

(٢) يقصد الجنس لا الأفراد.

(٣) رواه أحمد في المسند.

بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلا بالإسراع حذرًا من فائت.

إذا هزّنــا الــشوقُ اضــطربنا لهــزِّهِ　　　على شُعَبِ الرَّحْلِ اضطرابَ الأراقمِ

قال سفيان الثوري: بت عند الحجاج بن الفرافصة إحدى عشرة ليلة، فما أكل ولا شرب ولا نام»[(١)(٢)].



(١) لعله يقصد حاله في الليل دون النهار.

(٢) المدهش، ابن الجوزي (٥١٢ـ٥١٤) باختصار.

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

١) مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب
٢) الإخلاص والتوحيد
٣) العبودية
٤) الصدق مع الله تعالى
٥) محبّةُ الله تعالى
٦) الشّوقُ إلى الله تعالى
٧) الأُنسُ بالله تعالى
٨) الإرادة
٩) العزم
١٠) الرّجاء
١١) الرّغبة
١٢) التّوكّلُ على الله تعالى
١٣) حُسنُ الظّنّ بالله تعالى
١٤) الثقةُ بالله تعالى
١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
١٦) الاستغناءُ بالله تعالى
١٧) التعلُّقُ بالله تعالى
١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
٢٠) سلامةُ الصّدر
٢١) العفاف
٢٢) الصَّبر
٢٣) الرّضا
٢٤) ...

الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة ـ جوال: 0502543917